

مُقَدِّمَةٌ

«ثم لم يأت من بعدهم إلا مقلد، وبليد الطبع والعقل أو متبلد، ينسج على ذلك المنوال، ويحتذي منه بالمثال»^(١).

ابن خلدون

منذ عقد من الزمن، جمعتني جلسة بنخبة اشتغلت أكاديميًا على أعمال مالك بن نبي الفكرية، وفي أثناء الحديث قلت فيما قلت: لقد رأيت البارحة بن نبي في المنام كأنه يحدثني ويرحب بي ويأخذني بالأحضان، وقبل أن أستأذنه في الانصراف طلب مني يراعًا وقرطاسًا ثم شرع في الكتابة. لم يرق كلامي لمن كان يعتقد أنه الوصيُّ الفكريُّ على أعمال بن نبي؛ فانتفض في حدة، قائلاً: هل بت تلك الليلة على وضوء؟ عجبْتُ من قوله يقدّس الرجل؛ فأجبتُه بلا انتظار مني: وهل يُشترط أن أكون على وضوء حتى أرى مالكا في المنام؟

بالطبع لم يعجب صاحبنا هذا الرد السريع الذي أضحك الجلاس، بل رحتُ أسرد ما رأيتُ؛ حيث ارتفعت حدة استنكار محدثي، فانكفأت عنه بوجهي لتلافي مكروه القول إن هو تفوّه به، وصوّبت حديثي إلى من كان لديهم الرغبة في تبادل الحوار بأخلاقيات عالية، تمامًا كما أوجّه الآن نصّي تلقاء من لا يعينهم بن نبي أكاديميًا، لا سيما أن بن نبي لم يكن أيضًا أكاديميًا؛ فلم يشقّ بل ارتقى. يشقى الأكاديمي إذا ساورته الظنون أن أعماله ترقى على الأعمال الأكاديمية الأخرى التي تناولت بن نبي فكريًا وحضاريًا. يشقى إذا هو اقتنع أن عمله عن بن نبي غير مسبوق، وأن لا أحد يعلوه في المستوى؛ حتى وإن خاب الرجاء في المحتوى.

(١) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ط ١ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٩م)، ج ١،

إن أهل المستوى ممن أفادوا من بن نبي أكاديميًا قد طرحوه ما بعد التحصيل الأكاديمي واستغنوا عنه، ومن ثمَّ ولَّوا نشاطهم الأكاديمي نحو قِبلَة أُخرى؛ إذ تبيَّن لهم ولغيرهم أن المحتوى الأكاديمي الذي وضعوه لغيرهم وزَيَّنوه لأنفسهم ليس في مكنته أن يضيف لبن نبي جديدًا أو يذهب بالأكاديميين بعيدًا؛ ما أدى بهؤلاء الأكاديميين، ممن خاب رجائهم في أعمالهم الأكاديمية التي تناولت بن نبي، إلى الانشغال بمشاهير آخرين غير مكتملين، أحياء غير أموات؛ فوقعوا في ما كان يجرهم عليه بن نبي نفسه؛ حيث كان يعدهم من عبَّاد الشخص وليس من نَقَّاد الفكرة. وإذ يدرِّب العمل الأكاديمي الصارم النشء المتعلِّم كيف يكون موضوعيًا وأمينًا ونزيهاً ومتخلِّقًا؛ فإن الإنسان غير المتخلِّق هو إنسان غير متعلِّم حتى لو أفنى حياته أكاديميًا. إن من يكتب عن القامات الكبرى مثل بن نبي ولا يتجشَّم عناء المقامات الفكرية في مشروعه الحضاري الأكبر، يكون مصيره الفساد المعرفي الذي هو شكل من أشكال الرداءة؛ لأن مثل هؤلاء الأكاديميين، وقد رصدنا حالات منهم، ينتظرون من الكتابة عن بن نبي أن تمنحهم فرصة تقمُّص بن نبي وجدانيًا؛ ولكن لا شيء من ذلك. بالطبع لا تربطنا رابطة أكاديمية مباشرة بأعمال بن نبي. وإذ تنحصر مهمتنا في توظيف أفكار بن نبي، ومن ثمَّ توسيع دائرتنا المعرفية وتعميقها؛ فإننا بحاجة ماسَّة إلى بذوره الفكرية، وهو أيضًا بحاجة إلى حقلنا المعرفي، وبالدراية منه والعناية منَّا تحصل الثمرة. وعليه، فإن عملنا الأكاديمي حول التنمية ما كان له أن يقف على رجليه لو لم نتوَّكَّأ على عصا بن نبي الفكرية ونهشُّ بها على عناصر البحث عسى أن تستقيم، وتكون لنا عونًا على تمديد الحبل ما اتسع إلى الإحاطة بمشروع بن نبي الحضاري.

كما يفترض منَّا ألا نتعامل مع بن نبي على أساس أنه له فضل علينا، فنقبلي سجناء هذا الفضل، لا سيما أن الذين تحسَّسوا أفكار بن نبي -وما نراهم تخصصوا فيها تخصص الذي فكَّ قيده وأطلق خطوه- قد سجنوا أنفسهم في مشروعه الحضاري؛ فحبسوها عن إضافة الجديد فكادت أفكارهم تتبدَّد ولا تتجدَّد، تصدأ قبل أن تبدأ. وإن حالهم كحال من قال فيهم أبو تمام: كل شيء غثَّ إذا عاد. ومن ثمَّ، يفترض أن تحيط النخبة العارفة بأعمال بن نبي ولا تحتاط من أن لها عليه فضلًا إذا هي جعلت من أفكاره تتعدَّد وتتمدَّد.

ما من شكّ في أن حضور بن نبي واضح في عملنا؛ ما جعلنا نستبق الحديث عنه في مقدمتنا. لقد مَتَحْنَا فكرة الكتاب من أفكاره؛ حيث ندين بمصطلح (تجسيم لحضارة) لمالك بن نبي؛ ومن ثَمَّ فإن عمله سابق لدينا وليس له فضل علينا. وإذا تعامل مع عمله، فإننا لا ننكر فضله علينا؛ ومن ثَمَّ لا نكون تَمَرَدْنَا ولا صَرْنَا لثَمًّا؛ لأننا إذا سَبَقْنَا فضله علينا في بداية عملنا فسنقع في فخ من إذا أكرم الكريم ملكه؛ فيملكنا. ومن ثَمَّ، لِمَ لا نستبقه فنكرمه حتى نملكه؛ فيصير عمله ملكًا لنا نتصرّف فيه حيث نشاء، وليس عملنا ملكًا له يتصرّف فينا كيفما شاء؟

في هذه الدراسة نعتمد على حقلنا المعرفي من غير أن يملّي علينا بن نبي ما يريده، بل ما نريده هو ما سنمليه عليه. إن حدود ردوده علينا تقف عند الذي انتهى من كتابته، وليس فيما يقوله ردُّ علينا بعدما أفضى إلى ربّه؛ حيث إن الإرادة هنا تستدعي منّا (فهم الفهم) الذي هو شكل راقٍ من أشكال النقد البناء. وإذا يحدونا الأمل في توظيف آلية فهم الفهم بدلًا من النقد، فذلك حرص منّا على التأدّب مع بن نبي وإنزاله منزلته الرفيعة في عالم الفكر. إن مالكا كان على درجة عالية من الفهم الذي حصل له من النقد والملاحظة، ونحن هنا نحرص على أن نرتقي إلى هذا الفهم بطريقتنا الخاصة في الملاحظة أيضًا، بحيث تتيح لنا أفكاره الناقدة نقدًا أوضاعنا، وليس بالضرورة نقد أفكاره التي ترتدُّ على نقاده؛ وإنما يحدونا التأكد إذا ما كانت أفكار بن نبي الناقدة كافية لتغيير الأوضاع، وليس لتبادل الأدوار وحسب.

نسعى إلى التعاطي مع أفكار بن نبي العصرية بطريقة عصرنا، والإنصات لمطالبه والتعاطي مع اهتماماته والوقوف على همومه؛ إذ يقلقنا أن نرى أنفسنا من غير دولة مؤسسات وأساسات، بينما لنا إرادة الإنسان وإمكانات الأرض وحياة الوقت. كما يقلقنا أن نمارس يومياتنا المادية من غير دين قيّم يقيّم أعمالنا وأموالنا؛ لا سيما أن الفساد المالي الأكثر طغيانًا -من الدولة غير العادلة- لا يبغي ولا يذر. هذا إن لم يقف الدين إلى جانب مؤسسات الدولة لتغيير الأوضاع التي ما زالت على حالها منذ صرخة ابن خلدون المشهورة: وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخموم والانقباض فبادر بالإجابة.

بالطبع تعيننا تحليلات بن نبي، وذلك على الرغم من أنه لا يمكن الإمساك بخيوطها؛ ففكرة بن نبي واحدة على مستوى مشروعه؛ ولكن تتوزّع على مستوى

المدخلات، وتتوسّع على مستوى المخرجات؛ إذ إن هناك ربطًا بين المداخل والمخارج؛ وهذه هي الدينامية ذاتها. إن كل من يكتب عن بن نبي عليه الإحاطة بهذه الدينامية. هذه التحليلات فيها ما يضيق في موضوع ويتّسع في موضوع آخر، وإن التعاطي مع ضيقها قد يفضي إلى نص ضيق؛ أما التعاطي مع وسعها فيستدعي من الكاتب أن يستغرق وقتًا طويلاً لفهم مشروع بن نبي بحيث يكون أطول مما استغرق بن نبي نفسه في صياغة مشروعه الفكري.

كل تحليلات بن نبي قامت على معادلة حضارية: الإنسان والأرض والوقت؛ إذ يفترض ممن يقف على مشروع بن نبي ألا ينطلق من تحليلاته وتفرعاته؛ وإلا يبقى الكاتب سجين تحليلات بن نبي؛ إذ تكاد تكون نسقًا مغلقًا، لا أحد يأتي بجديد عليها. في الغالب نلفي الكتاب يسعون إلى تقليد بن نبي في تحليلاته؛ فيأتي تقليدهم رديًا لا يعكس جودة أعمال بن نبي المقلّد. ومن ثمّ، يفترض منّا أن نترك هذه التحليلات الفرعية جانبًا ولا نقلدها، بل نفيد من أصولها. بمعنى لا نكتب كما كتب بن نبي أو نعيد ما كتبه، بل نكتب ما لم يكتبه بن نبي، أو ما خطر في بال بن نبي كتابته في ظروف حالت دون ذلك.

من وجهة أخرى، لا تعيننا تحليلات بن نبي في ذاتها، بل يعيننا من أين استقى بن نبي تحليلاته. لا يعيننا ماء البئر بل يعيننا عمقه؛ لأن هذا الماء خرج من هذا العمق؛ فلو لا العمق ما كان الماء. هل هذا العمق كان كافيًا لتدفق الماء واستدامته لفترة أطول؟ ما لم يكتبه بن نبي هو ما لم يعمّق في حفرته. هذا العمق الحضاري الذي هو جهد صاحبه هو ما يعيننا، أما الماء الذي هو مشاع للجميع فالناس فيه شركاء. لا يعيننا الشيء المشترك الذي ينتفع منه الموجود حولينا، بل يعيننا الجهد الخاص المفقود لدينا. جهد بن نبي يصبّ في المعادلة الحضارية، فمن طريقها أتت المنافع/ التحليلات. وهذه المنافع إذا اكتفينا بها وصارت هي كل ما يعيننا؛ فإنها قد تشبنا عن بذل الجهد.

إذا عندما قرأنا بن نبي لم نختلف معه في شيء ينفع المريدين الذين وقفوا عند تحليلاته فسجنهم الوصف ولم يحرّهم النقد، حيث تؤخذ الحرية النقدية غالبًا وعذابًا؛ وإنما اختلفنا معه في شيء يخصه ويتمثل في جهده؛ أي المعادلة الحضارية

التي تعيننا أكثر من غيرها في أعمال بن نبي، والتي لو لم يؤلف كل ما أُلّف لكفت معادلته الحضارية في شروطها النهضوية ووفت.

ما من شكّ في أن كتابات بن نبي تكرر نفسها بحثًا عن التعدد والتجدد، فولا التعدد والتجدد لجاءت كتابات بن نبي مملّة للذات ومتعبّة للعقل. لقد تكررت أفكاره التحليلية الأفقية؛ لأن معادلته الحضارية العمودية أيضًا تكررت، ومن خلالها كانت خيوط التحضّر تحاك هنا وهناك.

تحليلات بن نبي انداحت أفقيًا، إلا أن معادلته حُدّت عموديًا. ومع ذلك، فإن هذه المعادلة المحدودة تحمل جدّة قابلة للتعدد؛ لأنها تسلك مسارًا عموديًا. إن التعدد هنا ليس هو تحليلات بن نبي نفسها كما يهيم بها بعض الأكاديميين ممن ظلت كتاباتهم أفقية وسطحية، بل إن التعدد كما نفهمه هو الإضافة إلى عناصر المعادلة الحضارية والتماهي معها عموديًا. ومثل هذه الثنائية -التحليلات الأفقية والمعادلة العمودية- ظل يتجاهلها من كتبوا عن بن نبي، فأعادوا ما كتبه بن نبي أفقيًا؛ أعادوه بشكل رديء لا يرقى إلى مستوى كتابات بن نبي المجوّدة. ومع ذلك، فإن هذا التعدد ذاته لم يمارسه بن نبي نفسه؛ حيث نلّف مشروع بن نبي نسقًا مغلقًا يصعب الإتيان بمثل تحليلاته بله استكشاف ثغراته وغلق فجواته؛ إذ جاءت تحليلاته غلقًا مغلقًا.

هذه التحليلات، أيضًا، وهي تتوجه أفقيًا نحو المستقبل من منظور اجتماعي، كانت في الوقت نفسه تتوجه نحو الماضي بيولوجيًا؛ فهي الآن في حكم الماضي والتراث، الذي يمكن الإفادة من جوهره الحيّ وليس من هيكله العيّ. وإذا انطرح هيكله العيّ أفقيًا واستسلم للماضي البيولوجي وأخلد للراحة؛ فإن جوهره الحيّ يرنو للأفق ويتوجه عموديًا وينبض اجتماعيًا وإنمائيًا وحضاريًا؛ تلك هي معادلته الحضارية التي ما زال بها بعض حياة. وإذا انطلقنا من معادلته، وليس من تحليلاته أسيرة هذه المعادلة، فإن مالكا يكتبنا فيجدّد عمله من داخل حقننا؛ ولكن إذا استسلمنا لتحليلاته فسنبقى أسرى للمعادلة في شكلها الضيق، فنلّف أنفسنا نكتب مالكا فيكرر نفسه من داخلنا؛ فلا نكون بذلك قد أضفنا لما كتبنا.

كان بن نبي يكرر أفكاره بشكل مجدّد لا يتقنه إلى وُضاع الأفكار؛ ولكن لم يضيف للمعادلة الحضارية عناصر جديدة فلم يعدّها ولم يجدّد فيها، كما لم يرتق بها عموديًا

على نحو حضاري أفضل . انشغل بن نبي بالتحليلات سلبية المعادلة ، وليس بالمعادلة التي كانت مقدمة التحليلات وخاتمتهما ؛ ما انعكس ذلك التكرار على مريديه وحتى على نقاده . وعليه ، فإننا عندما نتعامل مع بن نبي لا نتعامل مع تحليلاته الأفقية ؛ وإنما مع معادلته الحضارية العمودية . نتعامل مع الأصل /المعادلة وليس مع الفرع / التحليلات ؛ لأن معادلته الحضارية إذا نقلناها إلى حقلنا المعرفي فسنضطر إلى أن نمنح تحليلاته إجازة ، ونجعلها على هامش حقلنا المعرفي (=التمية المركبة) . وإذا شاء لنا أن نستعين بما علق بالمعادلة الحضارية من تحليلات إضافية ؛ فإننا نستعين بالتي كانت لها القابلية لحصول هذا التعدد الذي لم يحصل .

بالطبع يصعب على المرء فهم الكبار إذا وقف منهم موقف الصغار ؛ إذ يفترض من هؤلاء الصغار ألا يكتفوا بالأقوال العريضة والمتكررة والأفقية التي يسهل الإمساك بها ، والتي تثبت في الذاكرة ؛ حتى يفوزوا بفهم مقاصد الكبار واقتفاء أثرهم . كما يفترض منهم تجشم عناء تجربة الكبار التي تتخللها تقطعات وفجوات وثغرات كانت سبباً في عدم توصيل أفكارهم بالشكل الذي كان يفترض أن يوصل به . هذه التقطعات والفجوات والثغرات هي ما ينبغي للصغار البحث في دهاليزها الضيقة ، ومن ثم الكشف عن المقاصد العليا لأفكار الكبار التي لا تكون في الغالب بارزة ، ولا تُظهر نفسها للعيان ؛ بل توقفها محطات كانت صعبة في حياة الكبار ، وتحجبها ضبابية المرحلة ، وتعرقل مسيرتها تصورات سائدة جعلت الكبار يكتفون بما هو رائد من الأقوال من غير التمرد الفاضح على السائد من الأحوال .

ولكن بعد تغير المرحلة الإيديولوجية ؛ فإن الرائد ينفذ الناس ، بينما السائد يتحول إلى زبد وجفاء وهباء ؛ ولكن ما يبقى من أفكار الكبار بعد أن يزول الحجاب وتوضح الرؤية ، هو عمق أفكارهم وعموديتها ؛ حيث كان يصعب على تلك المرحلة سبر غورها ، وليس الأفقي والمرئي من أفكارهم التي كانت محل مراقبة من العصر البائد . إن المعادلة الحضارية لدى بن نبي وعلى الرغم من عموديتها ، فقد تحكمت أفكاره الأفقية في كبح طموحاتها ؛ أفكاراً كبحتها ، هي الأخرى ، مطبّات الإيديولوجيات التي كانت سائدة ومستبدة ، ومع ذلك كانت هذه المعادلة رائدة ومستعدة . ولو عاش صاحبها بعد هذه المرحلة لكشف عن العمق . ولأنه لم يسعفه الوقت ؛ فقد جاء دورنا

في الكشف عن ذلك إن استطعنا إلى ذلك سبيلاً ؛ ولكن بتركيب إنساني يسبق التركيب الحضاري الذي كان يقصده في آخر فقرة من كتابه شروط النهضة ؛ وكأنه يحاكي ، هو الآخر ، آخر فقرة من مقدمة ابن خلدون ، عسى أن يأتي بعدهما من يكمل مسيرتهما من غير أن يكون مقلداً لهما . ومع ذلك ، ظلت المعادلة هاجسه في كل كتاباته ، وقد دشنها في آخر فقرة من كتاب (شروط النهضة) ؛ حيث يقول : «إن قضيتنا منوطة بذلك التركيب الذي من شأنه إزالة المتناقضات والمفارقات المنتشرة في مجتمعنا اليوم . وذلك بتخطيط ثقافة شاملة ، يحملها الغني والفقير ، والجاهل والعالم ؛ حتى يتم لأنفس استقرارها وانسجامها مع مجتمعها ، ذلك المجتمع الذي يكون قد استوى على توازنه الجديد»^(١) .

نكمل المسيرة الحضارية مع إيماننا بأنها مسيرة عسيرة ، والوصول إلى منتصف الطريق له أصول ، والتنمية في مسيرة كهذه ليست تسمية ، والتطور لا يمر عبر مسالك التهور . وإن الإنسان بطبعه مبدع وفنان ، والحرية المسؤولة بالنسبة إليه لازمة ومبدولة ؛ إذ إن الماضي ليس ما مضى وانقضى ، بل هو قيم تقيم الحاضر وتقيم المستقبل ؛ فلا تمضي ولا تنقضي .

نرى المسيرة عسيرة ؛ لأننا سنقف ، في هذا العمل ، على أن الماضي هو الدين ، حيث إن الدين مسلكه الإنمائي عسير ؛ ولكن مع العسر يسراً . لقد جاء الدين من أقصى الماضي يسعى طلباً للتراحم مع التنمية حاضراً ومستقبلاً ، لكانه يكاد وحده ، في هيكله وجوهره ، يمتلك أن يستمر في الحاضر وينساب في المستقبل ، بخلاف التنمية التي قد تتوقف عند زمن من هذه الأزمنة . وإذا كانت التنمية توجد بالإنسان ، فإن الدين هو غاية كل موجود ؛ حيث إن الماضي هو أصل كل موجود بوصفه وسيلة مثل التنمية وغاية مثل الدين . إن الماضي قديم وُجد ليستديم ، وإذا استوقف توقف الحاضر عن العطاء ، وخاب في المستقبل الرجاء ؛ فالماضي لا يختزل في الرجال الذين هم إلى زوال ، وإنما الماضي نصوص راسيات كالجبال .

ترجيحاً على ما سلف من كلام يردّد صداه من الماضي ، ويقف على مفاهيم تصلح

(١) مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين ، ط ٣ (دمشق : دار الفكر ، ١٩٦٩م) ، ص ٢٣٩ .

لحاضر والمستقبل ، مثل : الحضارة والتنمية والتطور والحرية والإنسان والقيم والدين والدولة ؛ فإن وقفنا ستكون مركبة إنمائيًا وإنسانيًا ودينيًا ؛ إذ وفق هذا النسق الثلاثي تقاس قيمة الأشياء فتفصل فصولها وتمحّص أصولها . فإذا جاءت المسيرة الحضارية إنمائية تستبعد الإنسان والدين ، فهي ولا شك تعيش حاضرها وتخون ماضيها ، فينتقم منها مستقبلها وتحزن في مكانها ؛ فلا تتحضر أبدًا . وإذا أتت المسيرة الإنمائية دينية فهي تعيش ماضيها وتهرب من حاضرها ، فلا تتقدّم نحو مستقبلها ، وتقهقر (خلف) ماضيها ؛ فتغرق في بداوتها وجاهليتها . ولكن إذا أثبتت المسيرة الإنمائية والحضارية أنها إنسانية مركبة ، فما من شك في أن الدين سيتراحم مع التنمية ؛ الماضي مع الحاضر ، ويتشوّف إلى المستقبل الذي هو ميزة من صنع الإنسان .

إذا تجرّدت المسيرة الإنمائية الحضارية من إنسانيتها المركبة -السلطة والعامّة والنخبة- تكون قد تجرّدت من الدين ، ومن ثمّ لا تقف على تنمية أصلية متعالية ، وإن هي أتت تأتي تنمية فاعلة مسلّية للسلطة وبعض النخبة . ومن هنا تأتي أهمية الإنسان المركب إنسانيًا وإنمائيًا في نجاح التنمية والدين المتراحمين ؛ فمتى نجح الدين كان الإنسان متراحمًا مع غيره ، ومتى حصلت التنمية كان الإنسان محترمًا من غيره . إن التراحم الإنمائي والاحترام الإنساني يُبدعان الحاضر ويصنعان المستقبل .

إذا ، جذرا المسيرة الإنمائية الحضارية هما التراحم والاحترام ؛ الدين والإنسان . جاء الدين ليرحم الإنسان فتأتي التنمية مستقيمة ، وجاء الإنسان ليُحترم فتأتي التنمية مستديمة . إن في الدين استقامة وفي الإنسان استدامة . وإذ نلّفي التنمية لا تستديم من غير إنسان ولا تستقيم من غير دين ؛ فإن دروس التاريخ مبسوطة تكاد تصرخ أن ما يعيب البشرية هو تمردّها على دينها ، فتأتي تنميتها مصحوبة بالتخلف الذي ينقلب عليها كلما حرمت الإنسان ولم تحترمه ، وكلما تضايقت من الدين ولم تتضايّف معه . وإذا تأتي الحضارة ثمرة تعاون أفراد وجماعات ؛ فإن التنمية المركبة لا تحصل إلا وقد تجسّمت حضاريًا .

إن التنمية المركبة التي عالجنّاها في أعمالنا السابقة ، لا نراها تستديم إن لم تكن متراحمة مع الدين بوصفه ماضيًا يتجدّد ، ومحترمة للإنسان باعتباره حاضرًا يتمدّد ؛

حيث إن التنمية المرغبة هي نفسها المستقبل ؛ فكل تنمية تضحي بلا ماضٍ إذا هي لم تتراحم مع الدين ، وتمسي بلا مستقبل إذا هي لم تحترم الإنسان .

إذاً ، عملنا هنا يقف على أهمية الدين والإنسان في التنمية وفق معادلة الحضارة : الإنسان والأرض والوقت ؛ حيث إن الإنسان لا يقتدر أن يعيش من غير دين متراحم ، والأرض والوقت لا يُستثمران من غير إنسان محترم . ومن هنا تأتي أهمية العناصر الحضارية لكل تنمية حتى تتجسّم حضاريًا ؛ لأن الدين تحرسه مؤسسات متحضّرة ؛ فيتحضّر الدين من طريقها ، ويخرج من بداوته الأولى ليواكب الحاضر والمستقبل . هذه المؤسسات المتحضّرة تقيمها دولة مؤسسات وأساسات تتراحم مع الدين ولا تعاديه ؛ حيث إن من يتراحم مع الدين سيحترم الإنسان الذي يتعبّد بهذا الدين ، ومن غير توظيف الدين في التنمية لا يمكن أن تكون التنمية تجسيمًا لحضارة ؛ لأن أصل الحضارة بداوة .

وإذا لم يكن هذا الأصل البدوي ، الذي هو الدين ، يحمل بداخله بذرة التحضّر ، فلا تحصل الحضارة أبدًا . وإذ نبغي القول إن التنمية المرغبة -السلطة والعامّة والنخبة- تجسيم لحضارة حيث الوسائل توجد من داخلها ؛ فإن ذلك يعني أن التنمية المرغبة أيضًا تجسيم لدين حيث تُرسم الغايات من داخله هو الآخر ، نظرًا إلى أن الوسيلة في حاجة إلى غاية تجعلها نبيلة ؛ وإلا فإن الأمور لا تنفذ بنحو مستقيم ومستديم . وإذ تختار الإدارة الوسائل ؛ فإن الإرادة تختار الغايات .

وحتى لا نبقي أسرى النسق المغلق المرئي نظرًا إلى شساعة حقله ونتمكن من نقده بأدوات ، ليس هي نفسها أدوات بن نبي ؛ يفترض أولاً أن ننتقد النسق المفتوح غير المكشوف نظرًا إلى صغر حجمه ؛ فانتقاده هو مدخل لاستكشاف ثغرات النسق المغلق وفجواته . هذا النسق المغلق الذي أوقف المريدين عاجزين عن الإبداع من داخله ؛ ما يجعل عمل بن نبي ، في كليته ، نسقًا مفتوحًا قابلاً للإفاضة فيه والإضافة عليه . هذا النسق المفتوح هو الباب الذي دخل منه بن نبي إلى حقله فأوسع فيه ، ويفترض أيضًا أن ندخل من هذا الباب لنرى الأمور بوضوح ؛ إنه المعادلة الحضارية .

إن مشروع بن نبي مشروع حضاري نظري حبيس يقينياته التي هي في حكم المسلّمات لدى المريدين وبعض الأكاديميين ؛ إلا أن نقد هذه اليقينيات قد ينقل

مشروعه الفكري من ضيق التنظير إلى وسع التطبيق؛ حيث إن مشروع بن نبي الحضاري الواعي والعاقل والناصح بات ضروريًا من أي وقت مضى لتشخيص الحالة العربية والإسلامية الراهنة. فما يطرحه بن نبي من فكرة دينية يراها ضرورية لكل مشروع حضاري ناجح، تجاهله أصحاب القرار فلم تأت قراراتهم حكيمة؛ لأن وسائلهم لم تكن رشيدة.

لا نقف على مشروع بن نبي في ذاته فنكرر فكرته الدينية بل ننقدها؛ بحيث نتعامل مع مشروع بن نبي الحضاري بأنه مشروع اللحظة العربية والإسلامية المتأزمة الذي مسته الأزمة هو الآخر، عسى أن يكون مشخصًا لها ومداويًا أيضًا، بعد أن نشخص أزمته المتمثلة في هفوات نسقه المفتوح وثغراته. هذا، وقد استعنا بحالات من أمم وحضارات متباينة، نفيد منها في تعزيز ما نذهب إليه في أن التنمية المركبة التي تتراحم مع الدين بوصفه منظومة كلية -وليس باعتباره فكرة دينية- هي أمل الأمة العربية والإسلامية المنشود.

عين البرد - الجزائر / قومباك - ماليزيا

٢٠١٦/٠٨/٠٨ م